خاتمـــة
كتابة دلائل الإعجاز

قد بلغنا في مداواة الناس من دائهم، وعلاج الفساد الذي عرض في آرائهم كل مبلغ، وانتهينا إلى كل غاية، وأخذنا بهم عن المجاهل التي كانوا يتعسفون فيها إلى السَّنَن اللاحب[١]، ونقلناهم عن الآجن المطروق إلى النمير[٢] الذي يشفي غليل الشَّارب، ولم ندع لباطلهم عرقًا ينبض إلا كويناه[٣]، ولا للخلاف لسانًا ينطق إلا أخرسناه، ولم نترك غطاءً كان على بصر ذي عقل إلا حسرناه، فيا أيها السامع لما قلناه، والناظر فيما كتبناه، والمتصفح لما دوناه، إن كنت سمعت سماع صادق الرغبة في أن تكون في أمرك على بصيرة، ونظرت نَظَرَ تامِّ العناية في أن يورد ويصدر عن معرفة، وتصفحت تصفح مَن إذا مارس بابًا من العلم لم يقنعه إلا أن يكون على ذروة السَّنام، ويضرب بالمُعَلَّى من السِّهام، فقد هُديت لضالتك، وفتح لك الطريق إلى بُغيتك، وهيئ لك الأداة التي بها تبلغ، وأوتيت الآلة التي معها تصل، فخذ لنفسك بالتي هي أملأ ليديك، وأَعْوَد بالحظِّ عليك، ووازن بين حالك الآن وقد تنهبت من رقدتك، وأفقت من غفلتك، وصرت تعلم -إذا أنت خضت في أمر اللفظ والنظم- معنى[٤] ما تذكرُ، وتعلم كيف تُورد وتصدر، وبينها[٥] وأنت من أمرها في عمياء، وخابط عشواء، قُصاراك أن تكرِّر ألفاظًا لا تعرف منها تفسيرًا، وضروب كلام للبلغاء إن سئلت عن أغراضهم فيها لم تستطع لها تبيينًا، فإنك تراك تُطيل التعجُّب من غَفْلتك، وتكثر الاعتذار إلى عقلك من الذي كنت عليه طول مدتك، ونسأل الله تعالى أن يجعل كل ما نأتيه ونقصده

(١) السَّنن اللاحب: الطريق المسلوك الواضح.
(٢) الآجن: الماء المتغير الطعم، والمطروق: الذي تطرقه الأنعام والوحش، والنمير: الماء الجاري السائغ.
(٣) نبض العرق كناية عن مرضه وعلته، والجملة تمثيل لحسم ذلك الباطل وإزالته.
(٤) «معنى» مفعول «تعلم».
(٥) «وبينها» معطوف على «ووازن بين حالك الآن... إلخ».

ونتحيه لوجهه خالصًا، وإلى رضاه ﷻ مؤديًا، ولثوابه مقتضيًا، وللزُّلفى عنده موجبًا بمنِّه وفضله ورحمته[١].

* * *

(١) يذكر الأستاذ محمود شاكر أن هذه الفقرة صريحة الدلالة على أن هذا هو آخر كتاب «دلائل الإعجاز»، وفي نسخة أخرى مخطوطة وجد بعدها «تمَّ الكتاب والحمد لله... إلخ»، ولكن وجدت رسائل وتعليقات كتبها عبد القاهر بعد الفراغ من كتابه، فحسن إلحاقها به تحت عنوان «رسائل وتعليقات.. كتبها عبد القاهر الجرجاني».